أثر القرآن الكريم في شعر الأخطل

د. إسماعيل أحمد العالم
جامعة اليرموك

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذْ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، فهو معجزة بيانية، ومن الطبيعي ألاّ تمرَّ هذه المعجزة البيانية بحياة العرب من دون أن تؤثر في أدبهم، فقد أثّر القرآن في الأدب العربي تأثيراً كبيراً، سواء من حيث اللغة والأسلوب أم من حيث المعاني والأفكار أم من حيث الصور والأخيلة. صحيح أن القرآن الكريم نزل واللسان العربي قد صقلته فصاحة الأعراب، يصوغ تجارب الحياة وأحداثها في مثل وحكمة، ويفسرها في سجعة وينثرها في خطبة وينظمها في قصيدة، وكان هذا اللسان العربي قد قطع دهراً من عمره الفني يخترع المعنى وينتقي اللفظ ويرسم الصورة ويثقف الأسلوب، فلم يكن للقرآن لِيُري القوم إعجازه ومعجزته إلاّ أن يأتيهم بأسلوب لم تألفه صياغة القول عندهم من قبل، أسلوب يدهش الفكر والذوق واللسان، فجاء فريداً في نظم آياته، بديعاً في أداء أغراضه، رائعاً في عرض صوره ومخترعات بلاغته، له بلاغة القول الرفيع وبلاغة أخرى لم يعرف سرّ رقتها وبيانها وأحكامها. وله وقع الشعر في النفوس، ووقع جديد يحسّ به السامع ولا يحدده، وله موسيقى السجع ولكنه ليس من السجع المعروف، وله من رقة النثر الفني وطلاوته كل ما وفّره الفن للنثر من سماحة اللفظ ورقة العبارة، وانسجام الرصف وراحة الفواصل واكتمال المعنى وتلاحق الأفكار. وظلّ، إلى ذلك، كما وصف نفسه ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٨.

وليس في نيتنا هنا الكلام عن الخصائص الفنية لأسلوب القرآن، فقد عُقدت لذلك دراسات عديدة منذ أن فقه العرب هذا السفر الجليل. وما زالت هذه الدراسات تتوالى وتحوم حوله من دون أن تقع على سرِّ إعجازه وبلاغته، وظل بعد طول الدرس والتحليل واختلاف الأجيال "قرآناً" لا هو شعر ولا هو نثر. إنما الذي يعنينا هو موقف الأدباء منه وأثره في بعث الفكر العربي وما فتحه له من دروب للمعرفة.

لا شكّ أن الشعراء كانوا من أوائل الذين اهتموا بتدبّر القرآن ودراسته، ذلك لما لهم من كفاءات فنية ومعرفة طبيعية في فنون القول وأساليب التعبير، بالإضافة إلى أنهم كانوا يمثلون الطبقة المثقفة التي تُعْنى بمثل هذه الأمور والتي يهمّها أن تتدارس ما يجدّ على ميدان عملها. وليس أدلّ على هذا الاهتمام من كثرة الشعراء الذين أسلموا على يد الرسول الأكرم بعد أن استمعوا إلى قرآنه مادة وأسلوباً. ويبدو أن بعض الشعراء قد انكبَّ على دراسة القرآن مأخوذاً بمادته وأسلوبه حتى شغل به عن مزاولة نظم الشعر، فقد روي أن عمر بن الخطاب سأل لبيد بن ربيعة عمّا أحدثه من الشعر في الإسلام، فقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وسورة آل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين[٢].

ويبدو أن الانصراف إلى دراسة القرآن الكريم لم يكن بدافع الرغبة الشخصية وحدها، بل أن المسؤولين كما تشير إليه الرواية، قد عملوا على تشجيع الناس على دراسة القرآن، ومن صور هذا التشجيع أن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يهيبون بالأخطل إلى اعتناق الإسلام، ويحضّونه على التخلّي عن نصرانيته[٣].

---

(٢) الجمحي، محمد بن سلام (ت٢٣١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص١٣٥، وما بعدها.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج (ت٣٦٠هـ)، الأغاني، مصور عن طبعة عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣، ج٨، ص٢٩٠.

ومهما يكن من أمر فقد انتشر القرآن بانتشار الإسلام، وعمل المسؤولون – التزاماً بفروض الرسالة– على اطلاع الناس عليه، فكثر المفسرون والقرّاء، وكثر حفّاظه ورواة قصصه، وأصبح بالإضافة إلى كونه دستوراً ينظم شؤون الحياة الإسلامية، مصدراً ضخماً من مصادر الثقافة والحركة الفكرية عند العرب، وكان الأدب شعراً ونثراً أشدّ جوانب هذه الحياة تأثّراً بالقرآن، ذلك لأن الشعر والخطابة كانا وسيلة العصر للتعبير عن شؤون حياته العامة، ولما كان القرآن قد جاء ليقيم هذه الحياة على نمط جديد، كان الأدب بحكم دوره المذكور عنصراً من عناصر هذه التجربة، فلم يكن له بطبيعة الأمر أن يظلّ في معزل عنها، ولم يكن لآثارها أن تظهر عليه إلاّ حين يستوي لها الأمر، وتقطع المرحلة الطبيعية من مراحل وجودها، وهي مرحلة التثبت والاستقرار، وإذا رأينا أن أثره ظلّ مقتصراً على خطب الخلفاء الراشدين وشعر بعض الشعراء الذين دافعوا عن الرسول الأعظم؛ ذلك لأن العرب في هذه الفترة كانوا ما زالوا في دور دراسة القرآن والاطلاع عليه، غير أن آثاره ستظهر جلية واضحة في أدب النصف الثاني من القرن الأول، حين بدأ التأثر والتمثل والاستيعاب لأدب القرآن ومادته، وهذا ما سنحاول عرضه في ميدان واحد من ميادين الإنتاج الأدبي وهو الشعر، وفي شعر شاعر من هذه الفترة وهو الأخطل.

ولد الأخطل نحو سنة عشرين في الحيرة[٤]، ونشأ فيها يقول الشعر مغرماً بالهجاء، وكان جريئاً على الناس، سفيه اللسان، فلُقّب بالأخطل، وما أن شبَّ الأخطل حتى وجد نفسه في دولة إسلامية وفي أمةٍ تقرأ القرآن وتفسره، وتقيم حياتها على ما رسمه من قواعد وما تستنبطه منه من تشريعات وأحكام. وكان كلما تقدّم به العمر وجد نفسه في حركة فكرية إسلامية دائمة، تمثلها هذه الطوائف والشيع التي اشتجر بينها الخلاف، فاشتد بينها الجدل والكلام، وكل يحاول أن

(٤) الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ص٢١.

يصدر في حججه ورأيه عن القرآن، وكان من فضل ذلك أن اشتدّت الثقافة القرآنية، وبدأت الحياة العامة تصطبغ بصبغة الإسلام.

أما عن الجانب الديني من حياة الأخطل الخاصة، فقد كان يدين بالنصرانية، ولم يتأثر بالتعاليم الإسلامية تأثراً وجدانياً، بل تأثراً سياسياً لم يصرفه عن نصرانيته ويحفزه إلى اعتناق الدين الإسلامي، وكان تشبثه بمثل الجاهلية وحرصه على تقاليد البادية قد دعاه إلى أن يستهين بالقيم الخلقية والدينية التي أرسى دعائمها الإسلام، وليس معنى ذلك أنه كان يأخذ نصرانيته مأخذ ثقة ودرس، بل أنه فطر عليها وجرى فيها مجرى التقليد، واعتصم بها من ضمنه اعتصامه بقبيلته تغلب المتعاظمة بذاتها(٥).

ولسنا هنا في سبيل التأييد أو التفنيد لما خلع على الأخطل من صفات الاستهانة، وإن كنّا نعتقد أن الإيمان بالنصرانية لم يدخل قلبه، وأن الحاكم الأموي الذي يدين بالإسلام لم يرقق طبعه الذي اتّسم بالعنف واللعنة والإقذاع، استحال الشاعر معها إلى نقيضٍ من الشعور بالكبر وعظم القدر إذا أمدّاه بتلك العنجهية التي أخذت تنفح من روحها في مدائحه ومفاخره وأهاجيه، فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية، يهجم على اللذة متهتكاً، ويفتخر بذلك، ولا يبالي أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر في بلد إسلامي، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة، وينكرونها أشدّ الإنكار(٦).

وسواء أكان الأخطل فاسقاً مستهتراً أم متظاهراً بعدم الانفكاك من دين النصرانية، فإن ديوانه يدل على ثقافة إسلامية ومعرفة بالقرآن الكريم، واطلاع على أحكامه وقصصه ومعانيه وصوره، وتأثر بهذا الأسلوب، وتقليد واضح لصياغته،

---

(٥) الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ) شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس ليال، ١٩٦٢، ص١٠٨.

(٦) الأغاني، ج٨، ص٢٩٠.

وأخذٍ واسع من ألفاظه وتعابيره، إلى استعماله لغير قليل مما شاع من المصطلحات والألفاظ التي جدّت مع الحياة الإسلامية.

ومن ألوان هذا التأثر بالقرآن، أن الشاعر يرى فيه دستوراً وشريعة للحياة إذ يقول[٧]:

حُشْدٌ على الحقّ، عيًّا فو الخنى أنفٌ ... إذا ألَمت بهم مكروهَةٌ صبروا
وإنْ تدجّت على الآفاق مُظلمةٌ ... كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَرُ
أعطاهُمُ الله جدّاً، ينصرون به ... لا جدَّ إلاّ صغيرٌ، بَعْدُ، محتقرُ
لم يأشروا فيه، إذْ كانوا مَوَاليه ... ولو يكون لقوم غيرهم، أشروا
شمسُ العداوة، حتى يستقاد لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا

مقتبساً هذه المعاني من غير آية:

﴿واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾[٨].

و﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٩].

و﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾[١٠].

و﴿... أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم﴾[١١].

و﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس﴾[١٢].

---

(٧) شرح ديوان الأخطل، ص١٧١.
(٨) سورة لقمان، الآية رقم ١٧.
(٩) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٧.
(١٠) سورة القمر، الآية رقم ٣٥.
(١١) سورة الفتح، الآية رقم ٢٩.

وقوله:

والناس هَمُّهُمُ الحياةُ وما أرى طول الحياة يزيد غير خَبَالِ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذُخراً يكون كصالح الأعمالِ
ولئن نجوتُ من الحوادث سالما والنفسُ مشرفة على الآجالِ[١٣]

مقتبس من الآيات القرآنية:

﴿ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا...﴾[١٤].

﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾[١٥].

﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾[١٦].

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾[١٧].

﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾[١٨].

وقوله:

أعاذلَ، إنَّ النفسَ في كفِّ مالكٍ إذا ما دعا يوماً، أجابت له الرُسْلا
ذريني فلا مالي يَرُدُّ منيتي وما إنْ أرى حيّاً على نفسه قُفْلا

---

(١٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.
(١٣) شرح ديوان الأخطل، ص٢٤٨.
(١٤) سورة النحل، الآية رقم ١٠٧.
(١٥) سورة الرعد، الآية رقم ٢٦.
(١٦) سورة النحل، الآية رقم ٧٠.
(١٧) سورة فصلت، الآية رقم ٣٣.
(١٨) سورة العنكبوت، الآية رقم ٥٧.

وليس بخيلُ النفس بالمال خالداً ولا مِنْ جوادٍ، فاعلمي، ميّتٍ هُزْلا[١٩]

مأخوذ من الآيات الكريمة:

﴿أينما تكونوا يدرككمّ الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾[٢٠].

﴿وكلُّ من عليها فانٍ﴾[٢١].

وقوله:

فلمّا أغَرْنا أغْنَمَ اللهُ منهُمُ وذو العرش يُعْطي من جزيلٍ ويمنحُ[٢٢]

استلهمه من الآية الكريمة:

﴿ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[٢٣].

ويدعو القرآن الكريم إلى عدم الاغترار بالحياة لأنها غير خالدة، وإلى عدم الندامة على ما فات أو التحسّر عليه، مستلهماً ذلك من الآيتين الكريمتين ﴿فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرُور﴾[٢٤]، و﴿لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم...﴾[٢٥]، إذ قال:

---

(١٩) شرح ديوان الأخطل، ص٥٦٣.

(٢٠) سورة النساء، الآية رقم ٧٨.

(٢١) سورة الرحمن، الآية رقم ٢٥.

(٢٢) شرح ديوان الأخطل، ص٦٤٤.

(٢٣) سورة النور، الآية رقم ٣٨.

(٢٤) سورة لقمان، الآية رقم ٣٣.

(٢٥) سورة الحديد، الآية رقم ٢٣.

أغرُّ لا يَحْسَبُ الدنيا تُخَلِّدُهُ ولا يقولُ لشيءٍ فاتَ ما فَعَلاَ[٢٦]

ويدعو إلى الإيمان بطيب المقام في جنة الله إذ ينعم المؤمنون بالطمأنينة، وتنعم بها أسراب الطير حين تغرد في أرجائها آمنة، يقول:

في جنّةٍ هي أرواحُ الإله فما يُفَزِّعُ الطيرَ في أغصانها فَزَعُ[٢٧]

مستلهماً قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقرّاً وأحسن مَقِيلاً﴾[٢٨]، و﴿... وهم من فزع يومئذٍ آمنون﴾[٢٩].

ومن يتفحّص شعر الأخطل في ديوانه يجده قد تأثر بالقرآن في مدحه وفخره وهجائه ورثائه وغزله، إذ يعمد إلى معاني القرآن وصوره يقبس منها ويحلّي بها معانيه وصوره الشعرية، فصورة ممدوحه الوليد بن عبد الملك أمين الله وحصنه الحصين الذي لا يقهر إذ يفزع الناس إليه، فيغدق على النفس الأمن، ويهبها العطايا، ويصرف عنها الذعر مستبدلاً إياه بالطمأنينة وثبات القلب والقدم، مستلهماً ذلك كلّه من قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنّهم من بعد خوفهم أمناً﴾[٣٠]، و﴿وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام﴾[٣١]، و﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[٣٢]، إذ قال:

---

(٢٦) شرح ديوان الأخطل، ص٣٥١.
(٢٧) المصدر السابق، ص٢٠٨.
(٢٨) سورة الفرقان، الآية رقم ٢٤.
(٢٩) سورة النمل، الآية رقم ٨٩.
(٣٠) سورة النور، الآية رقم ٥٥.
(٣١) سورة الأنفال، الآية رقم ١١.
(٣٢) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٣.

إنَّ الوليدَ أمينُ الله أنقذني وكان حصنا إلى منجاته هَرَبي
أتيته وهمومي غيرُ نائمة أخا الحِذار، طريدَ القتل والهربِ
فآمن النفسَ ما تخشى، وموَّلها قَذْمَ المواهب من أنوائه الرُّغُبِ
وثبَّتَ الوطء مني، عند مُضْلِعَةٍ حتى تخطّيتُها، مُستَرْخياً لَبَبي[٣٣]

وهذه صورة أخرى يبتدع فيها الأخطل المعاني التي توحي للقارئ بعظمة الممدوح همَّام بن مطرَّف التغلبي، ويقول إنَّ همّاماً لو كان من الجنِّ لقام على رأسها ولخضعت له، مستلهماً قوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾[٣٤]، إذ قال:

فلو كان همَّامٌ من الجِنِّ أصبحت سُجُوداً له جِنُّ البلاد وغُولها[٣٥]

وعندما مدحه تذكّر أن يخلع عليه صفة الرحمة إذ يمطر الناس بفضله، وإن موته يجعل الأرض تفتقر إلى مثيل له يقوم مقامه ويحمل أعباءه، وجدنا الأخطل يفزع إلى القرآن ويستعين بالآية الكريمة ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾[٣٦]، فخلق منها صورة شعرية رائعة جسَّدَ بها صفات الممدوح حين قال:

فإن عاش همَّام لنا فهو رحمة من الله، لم تُنْفَسْ علينا فضولُها
وإن مات لم تستبدل الأرض مثله لأخذ نصيبٍ، أو لأمرٍ يعولُها[٣٧]

---

(٣٣) شرح ديوان الأخطل، ص٢٨٢.
(٣٤) سورة الرعد، الآية رقم ١٥.
(٣٥) شرح ديوان الأخطل، ص٣٥٨.
(٣٦) سورة الأنبياء، الآية رقم ١٠٧.
(٣٧) شرح ديوان الأخطل، ص٣٦١,٧٧

ولما اعتزم مدح عبد الله بن معاوية جال في خاطره ما ناله من فضل عبد الله وكرمه، فلولاه لغشي الشيب شعره من هول ما كان أصابه من أناس حنقين عليه، يتربصون للغدر به، فشدَّ عبد الله من أزره وأنقذه من شرهم، بادر الأخطل إلى القرآن يعتمد على تصويراته في غير آية، فأجاد وأبدع في توظيفها حين استلهم قوله تعالى: ﴿أشدُدْ به أزري وأشركه في أمري﴾[٣٨]، و﴿فما لنا من شافعين﴾[٣٩]، إذ قال:

لولا فواضله غداة لقيته ... بالجُدّ شاب مسايحي وعِذاري
مِنْ معشر حنقين لولا أنتم ... يا بن الخليفة ما شددتُ إزَاري
والشافعون مغيّبون وجوههم ... رزمو المقالة ناكسو الأبصار[٤٠]

وحين أراد أن يمدح عبد الملك بن مروان، انعطف الأخطل إلى القرآن العربي المبين يستلهم آياته بمعانيها وصورها، فعبد الملك يغفر ذنوب الناس، ويبدد ضلال الضالين في البلاد بنوره، إذ يعيدهم إلى سواء السبيل بعد أن أوشكوا أن يميلوا عنه، فلما قال:

أحيا الإله لنا الإمام فإنَّهُ ... خيرُ البريّة للذُّنوب غفورُ
نورٌ أضاء لنا البلادَ وقد دَجَتْ ... ظُلَمٌ تكاد بها الهُداةُ تجورُ[٤١]

اتّكأ الأخطل في معانيه الجميلة في هذين البيتين الشعريين على قوله تعالى: ﴿أن أخرج قومك من الظّلمات إلى النور﴾[٤٢]، و﴿ويخرجهم من الظلمات

(٣٨) سورة طه، الآية رقم ٣١.
(٣٩) سورة الشعراء، الآية رقم ١٠٠.
(٤٠) شرح ديوان الأخطل، ص١١١.
(٤١) شرح ديوان الأخطل، ص١٩٤.
(٤٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٥.

إلى النور بإذنه﴾[٤٣]، و﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾[٤٤]، و﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾[٤٥]، و﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾[٤٦].

وعندما أراد أن يمدح قوم جرير بن عبد الله البجلي إذ أجاروا تغلباً في زمن يتنكر فيه الوالد لولده، تذكّر ما يتسمون به من تقوى وقيام للصلاة في المساجد، وإيمانٍ بالله الواحد الأحد، مصوّراً ذلك أحسن تصوير؛ مستوحياً المعنى ومستلهماً الصورة من بعض المشاهد القرآنية كقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق... ﴾[٤٧]، و﴿...الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[٤٨]، و﴿قل هو الله أحد، الله الصّمد﴾[٤٩]، حين قال:

فقد أجاروا بإذن الله عُصْبتنا ... إذْ لا يكادُ يحبُّ الوالدُ الوَلدَا
قومٌ بظلُّون خُشْعاً في مساجدهم ... ولا يَدينون إلاّ الواحِدَ الصَّمَدَا[٥٠]

ولمّا أراد أن يهجو بني عبس بن بغيض بالخبث واللؤم والغباء، رأى الناس لا يترحمون على موتاهم ولا يصلّون عليهم، كما أن الأرض ترفض موتاهم، وتأبى أن تضمَّهم في جوفها إذا ما قبروا فيها، وإذا ما نحروا بُدْنهم في مكة فإنهم يُلفَوْن لغبائهم أضلَّ من تلك البهائم، تخيَّر قوله تعالى: ﴿ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم مات

---

(٤٣) سورة المائدة، الآية رقم ١٦.
(٤٤) سورة آل عمران، الآية رقم ٣١.
(٤٥) سورة المائدة، الآية رقم ١٨.
(٤٦) سورة البينة، الآية رقم ٧.
(٤٧) سورة الإسراء، الآية رقم ٣١.
(٤٨) سورة المؤمنون، الآية رقم ٢.
(٤٩) سورة الإخلاص، الآيتان رقم ١، ٢.
(٥٠) شرح ديوان الأخطل، ص٣٣٤.

أبداً ولا تقم على قبره﴾[٥١]، و﴿أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون﴾[٥٢]، حين قال:

ولا يُصلِّي على مَوْتاهُمُ أحدٌ ولا تقبَّلُ أرضُ الله ما قبروا
إذا أناخوا هداياهم لمنحرها فهم أضلُّ من البُدْنِ الذي نحروا[٥٣]

واندفع يقلّب صفحات ذهنه ومختزن ذاكرته يبحث فيهما عمّا يناسب من معانٍ وصور يهجو بها قوم قيس عيلان الذين كانوا ذوي نعمة يرتعون بخيرها، حتى وسوس لهم الشيطان وغرّر بهم، فركبوا مركباً وعراً يشبه ركوب ناقة مسنَّة قد تساقط وبرها عن جسمها، فتذكّر قول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا﴾[٥٤]، و﴿فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾[٥٥]، إذ قال:

كانوا ذوي إمَّةٍ، حتى إذا عَلِقَتْ بهم حبائل للشيطان وابتُهروا
صُكُّوا على شارفٍ، صعبٍ مراكبها حصَّاءَ ليس لها هُلْبٌ ولا وَبَرُ[٥٦]

وخلع على كليب بن يربوع قوم جرير المذلة إذْ لا يملكون زمام أمرهم، فيقضي به الناس عنهم، وهم غفل لا يلمون بشيء ولا يشعرون به، مستوحياً ذلك من قوله تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءَلون﴾[٥٧]، إذ قال:

مخلَّفون ويقضي الناسُ أمْرَهُمُ وهُمْ بغيبٍ وفي عَمْيَاء ما شعروا[٥٨]

---

(٥١) سورة التوبة، الآية رقم ٨٤.
(٥٢) سورة الأعراف، الآية رقم ١٧٩.
(٥٣) شرح ديوان الأخطل، ص٤٦٦.
(٥٤) سورة إبراهيم، الآية رقم ٨.
(٥٥) سورة النحل، الآية رقم ١١٢.
(٥٦) شرح ديوان الأخطل، ص١٧٥.
(٥٧) سورة القصص، الآية رقم ٦٦.

ومن أفانين التأثير القرآني في شعر الأخطل أن يعمد أحياناً إلى أن يفرّغ معنى آية أو أكثر في بيت واحد، مستعيناً على ذلك بقسم من الألفاظ التي تستعملها الآية نفسها بعد أن يغيِّر في صيغها ما تتطلبه الضرورات الفنية في الصياغة الشعرية، ومن أمثلة ذلك قوله:

وأهجُرْكَ هِجراناً جميلاً وينتحي لنا، من لياليا العوارِمِ، أوّلُ[٥٩]

فالبيت الشعري مقتبس من الآية الكريمة: ... ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾[٦٠]، وقوله:

عفا واسطٌ من آل رِضْوَى فَنَبْتَلُ فَمُجتَمَعُ الحُرَّيْنِ، فالصبرُ أجملُ[٦١]

مقتبس من الآيتين: ﴿.. فصبر جميل﴾[٦٢]، و﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾[٦٣]، وقوله:

وقد لبستُ لهذا الدهر أعْصُرَهُ حتّى تجلَّلَ رأسي الشيبُ واشتعلا[٦٤]

---

(٥٨) شرح ديوان الأخطل، ص١٧٧.
(٥٩) المصدر السابق، ص٢٦٤.
(٦٠) سورة المزمل، الآية رقم ١٠.
(٦١) شرح ديوان الأخطل، ص٢٥٩.
(٦٢) سورة يوسف، الآية رقم ١٨.
(٦٣) سورة المعارج، الآية رقم ٣.
(٦٤) شرح ديوان الأخطل، ص٣٤٧.

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآية الكريمة: ﴿قال ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا﴾[٦٥].

وقوله:

اليوم أجهِدُ نفسي ما وسعتُ لكم وهل تكلَّفُ نفسٌ فوقَ ما تَسَعُ[٦٦]

تلخيص لمعنى الآية: ﴿لا تكلّفُ نفسٌ إلاّ وسعها﴾[٦٧].

وقوله:

وفي الرجال يراعٌ لا قلوبَ لهم أغمارُ شُمْطٍ، فما ضرّوا وما نفعوا[٦٨]

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآيتين: ﴿وقَذَف في قلوبهم الرّعب﴾[٦٩]، و﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا.. ﴾[٧٠].

وقوله:

كأنه ساجد، من نضخ ديمته مسبِّحٌ، قام نصف الليل، فابتهلا[٧١]

---

(٦٥) سورة مريم، الآية رقم ٤.
(٦٦) شرح ديوان الأخطل، ص٢١٠.
(٦٧) سورة البقرة، الآية رقم ٢٣٣.
(٦٨) شرح ديوان الأخطل، ص٢٠٣.
(٦٩) سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٦.
(٧٠) سورة المؤمنون، الآية رقم ٦٣.

فقد قبس الأخطل المعنى من غير آية ﴿أمن هو قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة﴾[٧٢]، و﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾[٧٣].

ومن أنماط التأثير القرآني الأخرى في شعر الأخطل إفادته من مغزى بعض القصص القرآني إفادة ذكية في مواطن من شعره كانت تقتضيه ذلك. فإذا ما هجا بني عامر إذْ خلت ديارهم من الحكماء الذين ينهون أهلهم عن الغدر والمنكر، سلّط الله عليهم التغلبيين ليهلكوهم، تذكّر ناقة صالح التي سلّطها الله على ثمود فأهلكتها عندما جحدت بآيات ربها وعصت رسولها، فأرسل الله إليهم الناقة آية، يقول:

ولما رأى الرحمن أن ليس فيهم رشيدٌ، ولا ناهٍ أخاه عن الغدر
أمال عليهم تغلبَ ابنة وائل فكانوا عليهم مثل راغيَةِ البكْرِ[٧٤]

وفي هذا اتكأ الأخطل على الآيتين الكريمتين ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله﴾[٧٥]، و﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر﴾[٧٦]، و﴿فعقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربِّهم﴾[٧٧].

---

(٧١) شرح ديوان الأخطل، ص٣٤٤.
(٧٢) سورة الزمر، الآية رقم ٩.
(٧٣) سورة الحج، الآية رقم ١٨.
(٧٤) شرح ديوان الأخطل، ص٤٣٠.
(٧٥) سورة هود، الآية رقم ٦٤.
(٧٦) سورة القمر، الآية رقم ٢٧.
(٧٧) سورة الأعراف، الآية رقم ٧٧.

وعندما عزم الأخطل على هجاء نفيع من صفّار المحاربي الذي لا يزال يفخر بأيام بني قومه على التغلبيين، قال له: لا تدَّعِ المعالي ولا تتبجح بقدرتكم على مساورة الأعداء والقضاء عليهم، فإن قدرة التغلبيين في القضاء على أعدائهم تشبه حية موسى التي توسلها يوم أيّده الله بنصره، قال:

تخلَّ ابنَ صفَّار، فلا تَذْكر العُلَى ... ولا تذكُرَنْ حيَّات قومك في الذِّكْرْ
فقد نهضَتْ للتغلبيين حَيَّةٌ ... كحيَّةِ موسى يوم أُيّدَ بالنصر[٧٨]

مستمداً ذلك من الآيات القرآنية ﴿وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾[٧٩]، و﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾[٨٠]، و﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾[٨١]، و﴿قال ألقها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾[٨٢].

وأفاد الأخطل من قصص يوسف وهارون وداود ونوح عليهم السلام، عندما خاطب يزيد بن معاوية، منوّهاً بما كان من أمر حمايته له بعد أن تشرّد في الهاجرة، راجياً من الله أن يثيبه ثواب أولئك الأنبياء والأولياء إذ قال:

أمّا يزيد فإني لستُ ناسِيَهُ ... حتى يغَيّبني في الرَّمْسَ مَلحُودُ
جزاك ربُّك عن مستَقْرَدٍ وَحَدٍ ... نفاهُ عن أهله جُرْم وتشريدُ
مستشرَفٍ، قد رماهُ الناسُ كُلهُمُ ... كأنَّهُ، من سَموم الصيفِ، سَفُّودُ

---

(٧٨) شرح ديوان الأخطل، ص١٥٩.
(٧٩) سورة طه، الآية رقم ٦٩.
(٨٠) سورة الشعراء، الآية رقم ٣٢.
(٨١) سورة الشعراء، الآية رقم ٤٥.
(٨٢) سورة طه، الآيتان رقم ١٩، ٢٠.

جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفرةً أو مِثلَ ما جُزيَ هارونٌ وداودُ
أو مثلَ ما نالَ نوحٌ في سفينته إذا استجاب لنوحٍ، وهو منجودُ
أعطاه من لذَّةِ الدنيا وأسكَنَهُ في جنَّة نعمةٌ فيها وتخليدُ[٨٣]

مستمدّاً ذلك من الآيات القرآنية ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك..﴾[٨٤]، و﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا﴾[٨٥]، و﴿وكذلك ملكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾[٨٦]، و﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان﴾[٨٧]، ﴿.. وآتينا داود زبورا﴾[٨٨]، و﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾[٨٩]، و﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما﴾[٩٠]، و﴿وورث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير﴾[٩١]، و﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطّير﴾[٩٢]، و﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾[٩٣].

وجملة القول، لقد شاع القصص القرآني في شعر الأخطل عامة، وفي الشعر الذي هجا فيه أعداء تغلب، والذي مدح فيه خلفاء بني أمية خاصة، فقد كان للخلفاء صفة دينية بحسبانهم خلفاء الرسول الأكرم في رعاية رسالته، وكونهم

---

(٨٣) شرح ديوان الأخطل، ص٩٧.
(٨٤) سورة هود، الآية رقم ٤٨.
(٨٥) سورة الإسراء، الآية رقم ٣.
(٨٦) سورة يوسف، الآية رقم ٢١.
(٨٧) المصدر السابق نفسه، الآية رقم ٤٦.
(٨٨) سورة الإسراء، الآية رقم ٥٥.
(٨٩) سورة الأنبياء، الآية رقم ٧٩.
(٩٠) سورة النمل، الآية رقم ١٥.
(٩١) المصدر السابق نفسه، الآية رقم ١٦.
(٩٢) سورة سبأ، الآية رقم ١٠.
(٩٣) سورة ص، الآية رقم ٢٦.

قوّامين على تطبيق أحكام القرآن، فكان لا بدَّ للأخطل من أن يستعين بالقرآن حين يمدح الأمويين.

ولم يتوقف تأثّر الأخطل بالقرآن عند هذا حسب، بل ظهر في شعره إشارات إلى أحكام القرآن، فعندما أراد هجاء بني كليب استباحتهم حقوق الجار وما يحفظ له من ذمار، إذْ قال:

ما زال فينا رباط الخيل مَعْلَمةً وفي كليب رباطُ الذُلّ والعارِ
النازلين بدار الذلّ إنْ نزلوا وتسبيحُ كليب مَحْرَمَ الجارِ[٩٤]

وإلى جانب هذه الأمثلة التي ذكرناها، نجد أن الأخطل قد استعمل في شعره مجموعة كبيرة من ألفاظ العصر الإسلامي ومصطلحاته، سواء منها ما ابتدعته هذه الحياة أم وجدته مستعملاً في اللغة، فحملته معنى من معانيها، فأصبح ذا صبغة إسلامية، ولما كانت الحياة الإسلامية قد تميّزت بميدانين جديدين هما ميدان الحكم والسياسة وميدان الدين، فإن أكثر ما نجده من ألفاظ إسلامية في شعر الأخطل يتصل بهذين الميدانين، ولمّا كان ديوانه مليئاً بهذه المفردات سنكتفي بذكر أمثلة من كلتا المجموعتين من دون ذكر الصفحات.

فمن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالدولة والسياسة:

أمير المؤمنين، خليفة الله، الخلافة، أمين الله، الإمام، إمام الناس، الأئمة، أئمة الكفر، المظلوم.

ومن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالحياة الدينية الجديدة:

---

(٩٤) شرح ديوان الأخطل، ص٣٦٩.

الحق، العفو، الصدق، الحمد، الصبر، الوفاء، السجود، المسجد، الإحسان، التقوى، تقى الله، العهد، ذو أمانة، ذو العرش، الرحمن، الجنة، الإسلام.

لقد أحدث القرآن هزّة في الفكر العربي وأساليب تعبيره، وبات لأهل الرأي والثقافة مصدراً أساسياً في عملهم الأدبي، ولم يكن للأخطل الشاعر الذي حفلت بذكره أسواق الأدب وحلقات العلماء، أن يغفله ويصدّ عنه، ولعلّ مما زاد في اهتمامه بهذا السفر الجليل أنه واضع في طاقته الفنية للإسهام في أحداث عصره، تلك الأحداث التي كان القرآن مدارها في ميادين الخلافة والسياسة والدين، ويُضاف إلى ذلك أن ظروف عصره السياسية والقبلية كانت دفعته إلى الوقوع في خصومة عنيفة مع شاعر مثله شهرة ومكانة فنية هو جرير، وكان جرير فيما يروى عنه ينتمي إلى آباء وعشيرة عُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير، وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً، فوجد الأخطل في هذه الصفات مجالاً للطعن في خصمه؛ ولهذه العوامل مجتمعة، أكثر الأخطل من ذكر القرآن والرجوع إليه، وتزوّد منه بمادة لا تكاد قصيدة في ديوانه تخلو من إشارة إلى لون من ألوانها.

المصادر والمراجع

١- الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٣م.

٢- الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٨م.

٣- الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس ليال.

٤- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣م.